"أسباب نزول القرآن الكريم" من منظور القراءة الحداثية – جدلية النص والتاريخ –

د. نور الدين باب العياط*

الملخص:

شكلت ولا تزال" أسباب نزول القرآن الكريم"أحد أهم الفروع الأساسية فيما يعرف بعلوم القرآن، وقدمت على مدار قرون مضت مادة خصبة لكل محاولة تفسيرية اقتربت من النص القرآني، فلا يمكن أن تؤسس أي عملية لفهم النص بمعزل عنها، ويأتي هذا البحث ليعالج هذا الموضوع من وجهة النظرة الحداثية التي تحاول - وفق رؤى منهجية محددة - أن تربط فهم النص القرآني بأسباب النزول، ربط العلة بالمعلول، متجاوزة بذلك كل إعتبار مهما كان لقدسية النص، إلى القول بتاريخيته، تتحدد - بحسب هذه المدارس- ابتداء بالقول بأسباب النزول، وانتهاء إلى حدود النص المكانية والزمانية، وهذا ما يخالف الرؤية الإسلامية المعهودة، ويجعل النصوص تتساوى متجاوزة فكرة التقديس، هذه الخاصية التي هي أهم ما يميز النص الديني وفي مقدمتهم القرآن الكريم، ويأتي هذا البحث ليسلط الضوء على جانب متهافت في القراءة الحداثية، أهمه هو المقدمة الكبرى في الاستدلال التي تتوقف عليها باقي عملية القياس كما يقول المناطقة، تلك المقدمة التي لم تكن صحيحة بحسب الاستقراء التاريخي لتاريخية النص القرآني، والقائلة بأن كل الآيات القرآنية لها أسباب النزول، مما يترتب عليها في النتيجة القول بتأريخية النص، وهذا جوهر

* -أستاذ باحث في الحضارة الإسلامية، قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر.

الإشكال الذي يحاول المقال معالجته من خلال نماذج رائدة في الدراسات الحداثية للنص القرآني.

Abstract :

One of the fundamental fields of Quran sciences is the circumstances of revocation, "Asbab an nuzul". During many centuries, the theory of the interpretation of the Quran was not based only on the approach of the circumstance of revelation; however some modern studies in the Islamic world tried to refer to the historical context in which the Quran's verses were reviled. The authors of this point of view/ theory think that the historical nature of the verses should take the holiness from the hole of the Quran; therefore they contrast the classical theory of exegeses which is based on the sanctity of the revelation.

The paper is an attempt to present some evidences of the two theories about the problem of holiness of the Quran, because ally some verses in the Quran were reveled in historical circumstances.

مقدمة:

تُمثل " أسباب النزول" نصوصا نقلية تحكي نزول الوحي، وقد شغلت الباحثين-لكونها سياقات ثقافية وتاريخية واجتماعية تحيط بالنص القرآني- على مر العصور، وذلك في إطار تعاملهم مع نص المصحف الشريف ومحاولة بيان مسائله وتدبّر قضاياه، فكان لها حضور بارز إمتدّ بامتداد علم التفسير، حتى اشتهر أنه لا غنى للمفسر عنها، وعُد العلم بها من شروط التفسير وفهم القرآن.

ولما كانت مباحث علوم القرآن ذات خطر فإن أسباب النزول من أهم المباحث، بل لعلها أهمها على الإطلاق، لأن هذا المبحث قد حف بكثير من

الشبهات والشوائب التي حاول كثير من خصوم الإسلام قديما وحديثا أن يصوبوا سهامهم للطعن في القرآن.

تعريف أسباب النزول:

عرف الإمام الزرقاني سبب النزول بأنه: "ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أو سؤال وجه إليه، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب هذا السؤال"[1]، وعرف الدكتور داود العطار سبب النزول: « العلم الذي يتكفل بالكشف عن الأحداث التاريخية والوقائع التي كانت من دواعي النص القرآني"،[2] وقدمه الدكتور صبحي الصالح في كتابه"مباحث في علوم القرآن"على أنه "ما نزلت الآية أو الآيات بسببه متضمنة له أو مجيبة عنه أو مبينة لحكم زمن وقوعه"[3].

الملاحظ أن كل هذه التعريفات تصب في مصب واحد وإن اختلفت التعابير فيما بينها فسبب النزول عندهم هي أمور تشريع الإسلامي، جاء الوحي القرآني لحلها. ومن خلال التعريفات السابقة لا نستطيع أن نعد أحداث الأمم السالفة الماضية من أسباب النزول لأنها أحداث تاريخية سبقت عصر الوحي، ولذا نرى السيوطي ينكر على الواحدي في ذكره أن سبب نزول سورة الفيل قدوم أبرهة من الحبشة لهدم الكعبة قال في الإتقان: "والذي يتحرر من سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من سببها قصة قدوم أبرهة من الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك وكذلك ذكره في قوله:((وَاتخذ الله إبراهيم خليلا)) سبب اتخاذه خليلا ليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى"[4].

لذلك عمد بعض الباحثين إلى التفريق بين مصطلحين : سبب النزول وشأن النزول. فـ" أسباب النزول أي السبب الداعي والعلة الموجبة لنزول قرآن بشأنها.وهذا أخص من قولهم: «شأن النزول» لأن الشأن أعم موردا من السبب في مصطلحهم بعد أن كان الشأن يعني الأمر الذي نزل القرآن آية وسورة لتعالج شأنه بيانا وشرحا أو اعتبارا بمواضع اعتباره كما في أكثرية قصص الماضين والإخبار عن أمم سالفين أو عن مواقف أنبياء وقدّيسين كانت مشوهة وكادت تمسّ كرامتهم أو تحط من قدسيتهم، فنزل القرآن ليعالج هذا الجانب ويبين الصحيح من حكاية حالهم والواقع من سيرتهم بما يرفع الإشكال والإبهام وينزه ساحة قدس أولياء الله الكرام.

وعليه فالفارق بين السبب والشأن اصطلاحا أن الأول يعني مشكلة حاضرة لحادثة عارضة، والثاني مشكلة أمر واقع سواء أكانت حاضرة أم غابرة وهذا اصطلاح ولا مشاحة فيه" [5].

ولما كان القرآن الكريم كتاب هداية للناس كان في الوقت نفسه يحدد الحلول الصحيحة للمشاكل التي كانت تعيق حركة الدعوة الإسلامية الفتية في مختلف مراحلها ويجيب على التساؤلات التي يتلقاها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ويعلق على جملة من الأحداث والوقائع التي كانت تقع في حياة الناس ليوضح موقف الرسالة من تلك الأحداث والوقائع لذا نزل قسم من الآيات القرآنية بأسباب مباشرة وقعت في عصر النبوة واقتضى نزول القرآن فيها كمشكلة تعرض لها النبي والدعوة وتطلب حلا أو سؤالا استدعى الجواب عنه، أو واقعة كان لا بد من التعليق عليها وذلك من قبيل ما وقع في بناء المنافقين لمسجد ضرار بقصد الفتنة، فقد كانت هذه المحاولة من المنافقين مشكلة تعرضت لها الدعوة وأثارت نزول الوحي بشأنها إذ جاء قوله تعالى: وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ

اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ))[6].

ولمعرفة أسباب النزول أثر كبير في فهم الآية والتعرف على أسرار التعبير فيها لأن النص القرآني "المرتبط بسبب النزول، تجيء صياغته وطريقة التعبير فيه وفقا لما يقتضيه ذلك السبب فما لم يعرف ويحدد قد تبقى أسرار الصياغة والتعبير غامضة"[7]، ومثال ذلك ما أورده صاحب الموطأ "فعن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة أم المؤمنين وأنا يومئذ حديث السّن أرأيت قول الله تعالى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شعائر اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ }[8] فما على الرجل شيء ألا يطوّف بهما فقالت عائشة رضي الله عنها:كلا، لو كان كما تقول لكانت فلا جناح أن لا يطوف بهما، إنما نزلت الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله تعالى إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما"[9].

فالآية ركزت على نفي الإثم والحرمة عن السعي بين الصفا والمروة، دون أن تصرح بوجوب ذلك، فلماذا اكتفت بنفي الحرمة، دون أن تعلن وجوب السّعي، والجواب على هذا السؤال يمكن معرفته عن طريق ما ورد في سبب نزول الآية من أن بعض الصحابة تأثموا من السعي لأنه من عمل الجاهلية كما أوردنا فنزلت الآية بملحظ بياني رائع تنفي هذه الفكرة من أذهان الصحابة وتقر في الآن نفسه أن الصفا والمروة من شعائر الله فسبب النزول ساعد على فهم السر البياني في التعبير القرآني.

ونظرا لقيمة أسباب النزول فقد خصها جماعة من العلماء بالتأليف كعلي بن المديني، والواحدي والسيوطي، وجعل الإمام الشاطبي معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن، واستدل على ذلك بأمرين: " أحدهما أن علم المعاني و البيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن–فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب–إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال،حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب، أو المخاطَب، والجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك كالاستفهام لفظه واحد، ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها، ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الحال، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب، الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة وقوع النزاع "[10].

على أن الإفراط بالقول بأسباب النزول، ورد كل شاردة وواردة في القرآن الكريم إلى سبب بعينه فيه إجحاف في حق القرآن الكريم" أولع كثير من المفسرين بتطلب أسباب نزول آي القرآن، وهي حوادث يروى أن آيات من القرآن نزلت لأجلها لبيان حكمها أو لحكايتها أو إنكارها أو نحو ذلك، وأغربوا في ذلك وأكثروا حتى كاد بعضهم أن يوهم الناس أن كل أية من القرآن نزلت على سبب. فكان أمر أسباب نزول القرآن دائرا بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه وإرسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن"[11] ،كما أن الوهم بأن القرآن الكريم لا تنزل آياته إلا لأجل حوادث، يخلع عنه صفة الهداية لصلاح الأمة جمعاء كما يخلع عنه امتداده الأزلي، إن "قرائن مما حول النص، وهي باعتراف الأقدمين أنفسهم لا تخلو من وهم، والاختلاف فيها قديم

وخلاصة ما انتهى إليه قولهم في أسباب النزول أنها ما نزلت إلا أيام وقوعه وليس السبب فيها بمعنى السببية الحكمية العلية "[12] وتبقى أسباب النزول بالنسبة للمفسر مما يساعد على"...بيان مجمل أو إيضاح خفي وموجز، ومنها ما يكون وحده تفسيرا ومنها ما يدل المفسر على طلب الأدلة التي بها تأويل الآية أو نحو ذلك.."[13].

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: السؤال المطروح هو هل السبب الذي استدعى نزول الآية يخصص أو يقيد المدلول القرآني لها؟ وبعبارة أخرى: هل أن ما ينزل من القرآن لسبب من الأسباب يقتصر على ذلك السبب فيما أفاد من حكم ومدلول؟ أم يتعداه إلى غيره من الأمور والوقائع المطابقة؟

اتفق علماء الأصول على أن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" وأرادوا بهذا أن السبب الذي ينزل إثره الوحي لا يحبس التشريع ولا يقيده، وإنما يكون ذلك السبب مجرد مثير لنزول الوحي فيشمله الحكم النازل ويبقى هذا الحكم على عمومه سارياً على كل الوقائع والأحداث المماثلة لذلك السبب[14] وإلى هذا المعنى أشار الطباطبائي في ميزانه قال: "القرآن نزل هدى للعالمين يهديهم إلى واجب الاعتقاد وواجب الخلق، وواجب العمل وما بينه من المعارف النظرية حقائق لا تختص بحال دون حال ولا زمان دون زمان، وما ذكره من فضيلة أو رذيلة أو شرعه من حكم عملي لا يتقيد بفرد دون فرد ولا عصر دون عصر لعموم التشريع، وما ورد من شأن النزول لا يوجب قصر الحكم على الواقعة لينقضي الحكم بانقضائها ويموت بموتها لأن البيان عام والتعليل مطلق [15].

ولا ريب في صحة هذه القاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" والدليل على ذلك هو احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع عديدة بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة.جاء في الدر المنثور عن سعيد بن

منصور وابن جرير والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد المقبري أنه ذكر محمد بن كعب القرظي فقال: إن في بعض كتب الله: إن لله عبادا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، لبسوا لباس سوك الضأن من اللين يجترون الدنيا بالدين، قال الله تعالى: أعليَّ يجترئون؟ وبي يغترون؟ وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران.فقال محمد بن كعب القرظي: هذا في كتاب الله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ }[16] فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت؟ فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل تكون عامة بعد"[17].

من أسباب النزول إلى تاريخية النص القرآني: أثارت مجموعة من الدراسات المعاصرة جدلا كبيرا في الوسط الثقافي والديني، وما زالت تداعياتها، أخذا وردا، نقاشا وحدة، تتفاعل حتى يومنا هذا، ومما سطرته هذه الدراسات بعض ملاحظات في مجال أسباب النزول، سنلقي ضوءًا على أبرزها.

في البداية لا بد أن نشير إلى أن التعرض لأسباب النزول في هذه الدراسات قد ورد في إطار نظريات ومشاريع كان غرض أصحابها أعم من أسباب النزول بل من علوم القرآن، والتي ترتبط بمجمل التراث الإسلامي وإعادة النظر فيه، لذا لم يتعد البحث في أسباب النزول إطار الملاحظات أو الإشارات العامة، من غير أن تتحول إلى بحوثٍ تحقيقيّة تعالج مختلف جوانب هذا الباب، وعليه فما يدفعنا إلى التعرض لهذه الملاحظات هو ما فرضته من جدال في الساحة الثقافيّة، أكثر مما تضمنته من محتوى يرتبط بأسباب النزول.

ولما كان موضوع الوحي في الإسلام يدرس مقترنا بمبحث أسباب النزول حتى يستعان على فهمه بمعرفة تلك الأسباب"صار يعتقد بأنه إرتبط بأسبابه

إرتباط علة بمعلولها، بمعنى أنه لو لم تقع تلك الأسباب لما كان هناك وحي، ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم، وبالتالي ربط النص بسبب نزوله على هذا النحو وهذا هو معنى تاريخية النص الديني"[18].

أ - ملاحظات نصر حامد أبو زيد : تقوم نظرية نصر حامد أبو زيد، في كتابه: "مفهوم النصّ: دراسة في علوم القرآن"على أساس الاعتقاد بالعلاقة الجدلية بين النص والواقع، بناء على أن: "ظاهرة الوحي–القرآن-لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع أو تمثل وثبا عليه وتجاوزا لقوانينه، بل جزء من مفاهيم الثقافة ونابعة من موضوعاتها وتصوراتها "[19] ويعتبر في هذا المجال أنّ "علم أسباب النزول يزودنا من خلال الحقائق التي يطرحها علينا بمادة جديدة ترى النص استجابة للواقع تأييدا أو رفضا وتؤكد علاقة الحوار والجدل بين النص والواقع"[20] وأولى الملاحظات التي أبداها، تأكيده كثرة الآيات المرتبطة بأسباب النزول، بحيث كانت الآيات النازلة إبتداءً نادرة، يقول: "الحقائق الإمبريقية المعطاة عن النصّ (...) تؤكد (...) أنّ كل آية أو مجموعة من الآيات نزلت عند سبب خاصّ إستوجب إنزالها، وأن الآيات التي نزلت إبتداء -أي بدون علة خارجية- قليلة جدا [21].

أما الملاحظة الثانية فتقوم على أساس اكتشاف أسباب النزول من خلال النص القرآني نفسه، من غير العودة إلى الروايات، فبعد أن تساءل: "ماذا نفعل حين لا نستطيع تحديد أسباب النزول تحديدا حاسما جازما؟"، ذكر أن: "أسباب النزول ليست سوى السياق الاجتماعي للنصوص، وهذه الأسباب كما يمكن الوصول إليها من خارج النص، يمكن كذلك الوصول إليها من داخل النص"[22]، وأن"معضلة القدماء أنهم لم يجدوا وسيلة للوصول إلى"أسباب النزول"إلا الإستناد إلى الواقع الخارجي والترجيح بين

المرويّات، ولم يتنبهوا إلى أن في النص دائمًا دوالا يمكن أن يكشف تحليلها عن ما هو خارج النص" [23].

نقد ورد :

فيما يتعلق بملاحظته الأولى وحديثه عن ندرة الآيات التي نزلت إبتداءً، وما يمكن أن نقوله هنا أن تعبيره: "قليلةً جدًّا" يستدعي التوقف ويحتاج إلى توضيح ودقة أكثر ليكون أكثر موضوعية وعلمية، ذلك أن معظم علماء الإسلام أثبتوا بأن هناك آيات لم يعرف لها سبب النزول وهي كثيرة وعلى هذا الأساس كان تصنيف آيات القرآن الكريم إلى قسمين: قسم نزل إبتداءً، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال يقول الزرقاني: "القرآن الكريم قسمان قسم نزل من الله إبتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق، وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان وقسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة"[24] فأين هذه القلة التي توهمها أبو زيد، إلا أن تكون قراءته إنتقائية لأجل الوصول إلى أن النص القرآني خاضع لأسباب كانت وراء تنزله، مما يعني بحسبه "إرتباط النص بسبب نزوله وإهمال ما عدا ذلك، بهدف التأسيس لتاريخية النص الديني والتركيز على الإرتباط بالأسباب، لأن الأسباب دنيوية تاريخية، يمكن الإعتماد عليها"[25].

وحتى لو سلمنا بكثرة الأسباب، وأن ما نزل من القرآن معظمه بسبب فهذا لا يعني التسليم بالنتيجة التي يريد أن يخلص إليها أبو زيد ودعواه في مسألة العلاقة الجدليّة بين النصّ والواقع بشكلها المغلق، فقد وضح علماء الإسلام وفق قواعد أصولية،"العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" أو "المورد لا يُخصّص الوارد"، الحكمة من القول بأسباب النزول كما أوضحنا من قبل. وأما حديثه عن إستكشاف الأسباب من داخل النص، فهو وإن كان

كلاما منمقا ومفاجئا، إلا أنه لا يتعدى الدعوى إلى إقامة الدليل، فصحيح أن النص يكشف عما وراءه من التحليل، ولكن هل يكشف ذلك عن الحادثة التاريخية التي نزل بسببها؟! فبين الأمرين بَوْن شاسع.

والأخطر فيما ذهب إليه أبو زيد، أنه ربط أسباب النزول ليس بالأحكام العملية "التشريع" فقط، بل تعداها إلى المسائل الاعتقادية متجاوزا أسباب النزول نفسها إلى التاريخية، وحجته في ذلك أن العقيدة إرتبطت بتصورات أسطورية، ناتجة عن إعتقاد جمعي بها، وبحسبه "إذا قرأنا نصوص الأحكام من خلال التحليل العميق لبنية النصوص، وفي السياق الإجتماعي المنتج للأحكام والقوانين، فربما قادتنا القراءة إلى إسقاط كثير من تلك الأحكام، بوصفها أحكاما تاريخية، كانت تصف واقعا أكثر مما كانت تصنع تشريعا، وحتى العقائد بهذه القراءة التاريخية هي تصورات مرتهنة بمستوى الوعي وبتطور مستوى المعرفة في كل عصر، والنصوص الدينية قد إعتمدت في صياغة عقائدها على كثير من التصورات الأسطورية في وعي الجماعة التي توجهت إليها بالخطاب" [26].

ب- ملاحظات محمد أركون : شكل مبحث أسباب النزول أهم المواضيع التي أنعشت دعوى تاريخية النص القرآني عند أركون، لقد تناول هذا الموضوع من عدة جوانب "أهمها ربط الآيات القرآنية بالوقائع، وربط لغتها بلغة العرب إبان فترة نزول الوحي مع تركيزه على الصفة المتغيرة للغة، ما يشكل عائقا أمام مسلمي اليوم لاستيعاب القرآن على النحو الضروري، ثم الاهتمام المفرط بقضية ترتيب سور القرآن بحسب تاريخ نزولها "[27].

وفي مسألة أسباب النزول يبدو أن أركون يتفق مع القول السائد في علوم القرآن مؤكدا "إن السبب ليس إلا حجة أو ذريعة من أجل إطلاق حكم أو أمر أو تثبيت معيار معين أو تحريم شيء محدد"[28] ثم يخلط بين أسباب

النزول والقصص ووضعهما في سياق واحد لأجل تأكيد القول بالتاريخية" أن القصص العديدة تشكل الخلفية الأسطورية التي تفسر لنا سبب نزول كل آية من آيات القرآن"[29]. والواضح من هذا التصور هو أن أركون لا يفهم من أسباب النزول كونها تدلنا على إجابات الوحي عن أسئلة الواقع وقضاياه، يرشدها ويقومها كما فهمها العلماء، بل بحسبه–وهذا جوهر القول بتاريخية النص القرآني – يدل على أن الوحي في فترة نزوله كان يساير الواقع ويتكيف وفقه أو يخضع له لهذا نجده يؤيد إرتباط كل آيات القرآن الكريم بأسباب معينة، ومن ذلك قوله" كان المسلمون قد أنشؤوا علما يبحث عن تحديد أسباب النزول الخاصة بكل آية، ولكن هذه الأسباب لا تشمل جميع الأحوال المتعلقة بالوضع العام للخطاب، بل هي بعيدة جدا عن ذلك" [30] ومؤاخذته هنا أو إعتراضه منصب على عدم شمول تلك الأسباب لكل الأحوال المتعلقة بالوضع العام للخطاب لا على عدم شمولها لكل الآيات.

نقد ورد :

إن أول ما يمكن أن نلاحظه على أركون أنه جعل القصص القرآني أحد أسباب النزول، والحقيقة أن القصص القرآني لم يكن سببا لنزول القرآن لأنه لم يتزامن معه "فالقصص التي يتحدث عنها أركون، ويصل سندها إلى كعب الأحبار أو وهب بن منبه وظفها كثير من المفسرين لإعطاء بعض التفاصيل عما ورد في القرآن الكريم من قصص تحت إسم الإسرائيليات، أما أسباب النزول فهي ذات موضوع آخر مختلف عن هذا "[31] وهذا الخلط فقط لأجل تأكيد نظريته حول تاريخية النص القرآني.

هذا من جهة ومن جهة أخرى هل نزول القرآن الكريم كان مرتبطا إرتباطا تاما بأسباب معينة لولاها ما كان لينزل؟ في حقيقة الأمر لم يقل بهذا أحد ممن تصدى للتأليف في علوم القرآن وبخاصة أسباب النزول، "كل ما

هنالك أنهم تحدثوا عن وقائع ومناسبات تزامنت مع نزول تلك الآيات ،أو آيات نزلت جوابا عن أسئلة ،أو ربطوا بين آية سابقة النزول ونازلة لاحقة لظنهم أنها تسحب عليها كما انسحبت من قبل على مثيلتها"[32].

ج- ملاحظات حسن حنفي: في كتاب جماعي"الإسلام والحداثة" [33]رفقة مجموعة من الباحثين الحداثيين يعرض حسن حنفي بشكل مفصل، وأكثر عمقا وتحليلا لأسباب النزول بعنوان "الوحي والواقع–دراسة في أسباب النزول-"[34] ومن العنوان يتضح إبتداء إتجاه حسن حنفي في محاولة ربط الوحي بالواقع من خلال أسباب النزول للقول بتاريخية النص القرآني، معززا ذلك من خلال مقدمات تأسيسية مفادها"أن كل آيات الوحي نزلت في حوادث بعينها، ولا توجد آيات أو سور لم تنزل بلا أسباب. والسبب هو الظرف أو الحادثة أو البيئة التي نزلت فيها الآية، وإذا كان لفظ النزول يعني الهبوط من أعلى إلى أسفل فلفظ السبب إنما يعني الصعود من أسفل إلى أعلى... إن كثرة الحديث الخطابي عن واقعية الإسلام إنما ينشأ من هذا الموضوع وهو"أسباب النزول"أسبقية الواقع على الفكر، وأولوية الحادثة على الآية، المجتمع أولا والوحي ثانيا الناس أولا، القرآن ثانيا، الحياة أولا والفكر ثانيا "[35].

إن مثل هذا الطرح هو أحد المباني النظرية لحسن حنفي حول التراث بإعتباره تعبيرا فكريا عن ظواهر كل عصر وأنه تدوين نظري للمتغيرات الفكرية في ذلك العصر نافيا أن يكون التراث أمرا سماويا، بل تكوّنا تاريخيا وتطورا إجتماعيا، فـ"المفاهيم والنظريات الكلامية المختلفة عن العمل، والإيمان والكفر، والفسق، والعصيان، والنفاق، ومسألة الإمامة، هي تنظير لحوادث سياسية كان الناس يختلفون فيها"[36] وهو ناظر دوما إلى الظروف الزمانية ومتناسب معها، بل هو بذاته جزء من هذا الواقع الذي يتولى

تفسيره، وهو بهذا يصل إلى نتيجة وهي أن الدين وأصله ليس سوى فرض إمكاني لا يوجد إلا من خلال التفاسير التاريخية للمفسرين، مما نتج عنه أن تكون هذه التفاسير مختلفة، وأحيانا متعارضة، وكل واحد منها بمثابة ردة فعل للآخر، لأن التاريخ وظروف الحضارة ليست أمرا ثابتا.

نقد ورد :

إن إلقاء نظرة على كتب التفسير من أولها إلى آخرها، مما صنف في القرون الماضية، يدحض دعوى وجود أسباب النزول لكل آية من كتاب الله عز وجل، فما قرن منها بذلك قليل مقارنة بما ورد مجردا عنه ولا "يتعدى عند السيوطي 888 آية، أي 14 بالمائة من آيات القرآن، وعند الواحدي النيسابوري 472 آية،أي 7.5 بالمائة من آيات القرآن"[37].

أما مباني نظرية حنفي القائلة بأن التراث نتاج تفاعل تاريخي محض فهذا يحتاج إلى دليل، ورده هو الخلط الحاصل بين النتاج الفكري الديني والنص التأسيسي وخاصة منه القرآن الكريم، فإذا كانت التفاسير إختلفت وتنوعت لحد التباين أحيانا وهي فعلا إنتاج تاريخي إنساني، لا يعطي أن النص القرآني كذلك، فـ "المعرفة الدينية هو إدراك البشر وفهمهم للوحي وليس الوحي نفسه، ذلك أن الوحي نفسه متيسر فقط للأنبياء عليهم السلام، وما هو بين أيدي البشر العاديين هو فهم وتفسير للوحي"[38]، يضاف إليه أن المدارس الإسلامية ليست منتجة للفكر الديني، بل هي كاشفة عنه وتفسره من خلال مناهج تفسيرية خاصة، أما المؤثرات الاجتماعية والثقافية والتاريخية في عرضها للأسئلة، يتم الجواب عنها في ظل الأفكار والأصول الدينية الثابتة، والدليل الواضح أن هذه المدارس في محاولاتها تفسير الواقع ترجع دوما للنص القرآني بإعتباره الملاذ الوحيد لفهم المتغير وتفسيره ولا تتجاوزه، كما هو واضح من تاريخ التفسير، فلم يقل كل من تناول التفسير

القرآني أنه ينطلق من بديل عن القرآن رغم إختلاف الرؤية في فهمه، مما يعني هناك الثابت في العملية المعرفية الدينية، ولا يمكن أن يكون غير النص القرآني .

الهوامش :

1- محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج1، ط1، دار الكتاب العربي ، بيروت 1995م ،ص 89

2- داود العطار، موجز علوم القرآن ، ج1 ،ط3، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، 1995 ص21

3- صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ط10 ، دار الملايين ، بيروت ، 1977م ، ص 132

4- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ج1،ط1، دار الفكر، لبنان، 1996 م، ص 94

5- محمد هادي معرفة، تلخيص التمهيد، موجز دراسات مبسّطة عن مختلف شؤون القرآن الكريم ،ج1، مؤسّسة النشر الإسلامي ، إيران ، ص112 - 113.

6- سورة التوبة الآية 107

7- محمد باقر الحكيم، علوم القرآن، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط03، 1995 م ص 45

8- سورة البقرة الآية 158

9- الإمام مالك ، الموطأ ،ط 02 ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان،1981 م ، ص311

10- إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، الموافقات، تحقيق عبد الله دراز، ج3، دار المعرفة، بيروت، ص294- 295

11- محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ،ج01 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ص46

12- عائشة عبد الرحمن ، التفسير البياني للقرآن الكريم ،ج01 ،ط8 ، دار المعارف ،القاهرة ، 2004 ، ص 23
13- طاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، ص 47
14- ينظر ، تفصيل رأي الأصوليين ، مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن ،ص79
15- محمد حسين الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن، ج1 ،ص42.
16- سورة البقرة ، الآية 204
17- جلال الدين السيوطي ، الدر المنثور ، ج1، دار الفكر ، بيروت ، 1993،ص572
18- مرزوق العمري ، إشكالية تاريخية النص القرآني في الخطاب الحداثي العربي المعاصر ط01،، منشورات ضفاف ، بيروت ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، دار الأمان ، الرباط ، 2012م ، ص 414
19- نصر حامد أبو زيد ، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1990م ،ص38
20- المرجع نفسه ،ص 109
21- نفسه ، ص109
22- نصر حامد أبو زيد ، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن ،ص 126
23- المرجع نفسه ،ص 126
24- محمد عبد العظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج1،ص107
25- مرزوق العمري ، مرجع السابق، ص 418
26- نصر حامد أبو زيد ، نقد الخطاب الديني ، ص106
27- الحسن العباقي ، القرآن الكريم والقراءة الحداثية ،دراسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند محمد أركون ط1، أنوار للنشر والتوزيع ، الدر البيضاء ، المغرب ،2010م ، ص235
28- محمد أركون ، الفكر الإسلامي، قراءة علمية ، ترجمة هشام صالح ، ط2 ، مركز الإنماء القومي، بيروت ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، 1996 م ،ص 265
29- محمد أركون ،القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ، ترجمة هاشم صالح ،ط2،دار الطليعة ، بيروت ، 2005 ، ص30

30- محمد أركون ،القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ،ص 114-115
31- الحسن العباقي ، القرآن الكريم والقراءة الحداثية ،ص 236
32- العباقي ، المرجع نفسه ،ص 237
33- أدونيس ، محمد أركون ،حليم بركات ،محمد بنيس ،كمال بلاطة ، حسن حنفي ، بلند الحيدري ، إلياس الخوري ، فؤاد إسحاق الخوري ، مالك شبل ، هشام شرابي ، عادل ضاهر، جابر عصفور ، عزيز العظمة ، محمد مكية ، الإسلام والحداثة ، ندوة ومواقف، ط01 ،دار الساقي ، لندن ،1990م .
34- المرجع نفسه ،ص 133
35- حسن حنفي ، الوحي والواقع ، دراسة في أسباب النزول ، ضمن كتاب ، الإسلام والحداثة ،ص 135-136
36- حسن حنفي ، هموم الفكر والوطن ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، 1988م ، ص 341
37- محمد عمارة ، النص الإسلامي بين الاجتهاد والجمود والتاريخية ،ط1، دار الفكر ، دمشق سورية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت،لبنان ، 1998م، ص 20
38- محمد جوادي الآملي ، منزلة العقل في هندسة المعرفة الدينية ، تر. أحمد واعظي ، مركز منشورات إسراء ، إيران ، 2003 م.